نصف معمية من الدخان ، يسحقها سقوط الكتل الملتهبة وتخنقها جرارة لا تحتمل وتشويها ويوقفها اندفاع مفاجىء لنفثات كثيفة من اللهيب فتسقط كما يتساقط الذباب . وامتلأ النهر والحفر المحيطة بموسكو حتى اترعت بعدد كبير من الناس المحملين بالذهب والفضة والمجوهرات والكنوز وهم يأملون النجاة والاحتفاظ برؤوسهم سليمة فوق المياه .

ولقد كان مشهد هذا الحريق مرعباً لدرجة أن خان التتر اضطر الى الانسحاب . فلم يكن ثمة مجال للنهب وسط الرماد الحار وليس بالامكان تعرية الجثث مما عليها من ثياب . ولم يلق الحصار على الكريملين ولم يوجه الرماة نبالهم الى القصور والكاتدرائيات التي يضمها لان النتاج الرهيبة لهذه المذبحة جمد القبيلة الغازية . وعندما سرت الاشاعة بأن ماغنوس(*) كان يحث السير على رأس جيش كبير عاد التتر المنتصرون ادراجهم سالكين الطريق نفسه الذي قدموا منه . ووصلت أخبار الانسحاب للقيصر الذي كان قد غادر ياروسلاف الى روستوف الكبرى فأصدر امره الى ميشيل فوروتنسكي بملاحقتهم ، ولكن الخان كان اقوى من أن تقلقه مثل هذه الاعمال في مؤخرة قوته . وقد استمر في أعماله التخريبية اثناء الانسحاب وفتح كما لو أن في يده منجلا كبيرا ممرا واسعا من الشمال الى الجنوب . اما الغنيمة التي حملها رجاله فكانت عظيمة . فكانت تضم مائة الف من الصبايا المخصصين للبيع في أسواق النخاسة او الدخول في حريم الامراء ، والنخبة من الجميلات بينهن كان لا بد من أن تقدم الى السلطان نفسه . ولكن هذه المنهوبات وهذا الانتقام الذي تم باحراق موسكو كانت الثمار الاكثر وضوحا للانتصار وقام إيفان يلتمس الصلح يجلله الخزي والعار . وعندما توجب عليه ان يوقع هذا الصلح اخذ يتحايل ويسوف ويعبىء قواته وينظم نفسه . وفهم الخان أنه لن يتمكن من تجديد الهجوم فطلب اعادة قازان واستراخان ولكنه لم يحصل على شيء من ذلك

(*) ماغنوس Magnus دوق هولشتاين . — المترجم —